

سورة المرسلات

مكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالتَّائِبِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْقَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْفَيَاتِ ذِكْرًا (5) عُدْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (7) فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِجَتْ (10) وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْتَبِهُتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَضْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَضْلِ (14) وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ يُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نَبَّيْنَاهُمْ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ تَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (19) أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْبَاءً وَأَقْوَانًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَّ سَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (27) وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (28) انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انطَلِقُوا إِلَى طَلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا طَلِيلَ وَلَا يُعْنِي مِنَ اللَّهِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صَفْرٌ (33) وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (34) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطَفُونَ (35) وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فَيْعَتِزُونَ (36) وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هَذَا يَوْمٌ الْفَضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (39) وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (40) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَقَوَائِعٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِينًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (45) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا تَبْزُكُوا (48) وَبِئْسَ يَوْمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) قِيَّابٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

الشرح :

من الآية 1 الى الآية 14

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالتَّائِبِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْقَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْفَيَاتِ ذِكْرًا (5) عُدْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (7) فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِجَتْ (10) وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْتَبِهُتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَضْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَضْلِ (14)

سورة المرسلات

التعريف بسورة المرسلات

هذه السورة حادة الملامح , عنيفة المشاهد , شديدة الإيقاع , كأنها سياتم لاذعة من نار . وهي تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة , حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات , تنفذ إليه كالسهام المسنونة !

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة , وحقائق الكون والنفس , ومناظر الهول والعذاب ما تعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلمح القلب المذنب لفحة كأنها من نار: (ويل يومئذ للمكذبين)!

ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها . وهو أنسب تعقيب لملاحها الحادة , ومشاهدها العنيفة , وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة في سورة "الرحمن" عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد:(فبأي آلاء ربكما تكذبان?). . كما تذكرنا باللازمة المكررة في سورة "القمر" عقب كل حلقة من حلقات العذاب:(فكيف كان عذابي ونذر?). . وتكرارها هنا على هذا النحو يعطي السورة سمة خاصة , وطعما مميزا . . حادا . .

وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة , متعددة القوافي . كل مقطع بقافية . ويعود السياق أحيانا إلى بعض القوافي مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هذه المقاطع والفواصل والقوافي بلذعها الخاص , وعنفها الخاص . واحدة إثر واحدة . وما يكاد يفيق من إيقاع حتى يعاجله إيقاع آخر , بنفس العنف وبنفس الشدة .

ومنذ بداية السورة والجو عاصف نائر بمشهد الرياح أو الملائكة:(والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا , عذرا أو نذرا). . وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام .

وللقرآن في هذا الباب طريقة خاصة في اختيار إطار للمشاهد في بعض السور من لون هذه المشاهد وقوتها . . وهذا نموذج منها , كما اختار إطارا من الضحى والليل إذا سحى لمشاهد الرعاية والحنان والإيواء في "سورة الضحى" وإطارا من العاديات الصابحة الصاخبة المثيرة للغبار لمشاهد بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور في سورة "والعاديات" . . وغيرها كثير .

وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا المطلع , يمثل جولة أو رحلة في عالم , تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات . . أعرض بكثير جدا من مساحة العبارات والكلمات , وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى !

والجولة الأولى تقع في مشاهد يوم الفصل . وهي تصور الانقلابات الكونية الهائلة في السماء والأرض , وهي الموعد الذي تنتهي إليه الرسل بحسابها مع البشر:(فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أفتت . لأي يوم أجلت ? ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ? ويل يومئذ للمكذبين!). .

والجولة الثانية مع مصارع الغابرين , وما تشير إليه من سنن الله في المكذبين:(ألم نهلك الأولين ? ثم نتبعهم الآخرين ? كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين!). .

والجولة الثالثة مع النشأة الأولى وما توحى به من تقدير وتدبير:(ألم نخلقكم من ماء مهين ? فجعلناه في قرار مكين ? إلى قدر معلوم ? فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين!). .

والجولة الرابعة في الأرض التي تضم أبناءها إليها أحياء وأمواتا , وقد جهزت لهم بالاستقرار والماء المحيي:(ألم نجعل الأرض كفاتا ? أحياء وأمواتا , وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ? ويل يومئذ للمكذبين!). .

والجولة الخامسة مع المكذبين وما يلقونه يوم الفصل من عذاب وتأنيب:
(انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ! لا
ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر .
ويل يومئذ للمكذبين !)

والجولة السادسة والسابعة استطراد مع موقف المكذبين , ومزيد من
التأنيب والترذيل:(هذا يوم لا ينطقون , ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل
يومئذ للمكذبين ! هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد
فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين !)

والجولة الثامنة مع المتقين , وما أعد لهم من نعيم:(إن المتقين في ظلال
وعيون , وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا
كذلك نجزي المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين !)

والجولة التاسعة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التأنيب:(كلوا
وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين !)

والجولة العاشرة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التكذيب:(وإذا قيل
لهم: اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين !)

والخاتمة بعد هذه الجولات والاستعراضات والوخزات والإيقاعات: (فبأي
حديث بعده يؤمنون ?)

وهكذا يمضي القلب مع سياق السورة السريع , وكأنه يلهث مع إيقاعها
وصورها ومشاهدها . فأما الحقائق الموضوعية في السورة فقد تكرر
ورودها في سور القرآن - والمكية منها بوجه خاص - ولكن الحقائق
القرآنية تعرض من جوانب متعددة , وفي أضواء متعددة , وبطعوم
ومذاقات متعددة , وفق الحالات النفسية التي تواجهها , ووفق مداخل
القلوب وأحوال النفوس التي يعلمها منزل هذا القرآن على رسوله , فتبدو
في كل حالة جديدة , لأنها تستجيش في النفس استجابات جديدة .

وفي هذه السورة جدة في مشاهد جهنم . وجدة في مواجهة المكذبين
بهذه المشاهد . كما أن هناك جدة في أسلوب العرض والخطاب كله . ومن
ثم تبرز شخصية خاصة للسورة . حادة الملامح . لاذعة المذاق . لاهته
الإيقاع !

والآن نستعرض السورة في سياقها القرآني بالتفصيل:

الدرس الأول: 1 - 7 القسم بمخلوقات عظيمة على حقيقة البعث

والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . والفارقات
فرقا . فالملقىات ذكرا: عذرا أو نذرا . . إن ما توعدون لواقع . .

القضية قضية القيامة التي كان يعسر على المشركين تصور وقوعها ;
والتي أكدها لهم القرآن الكريم بنشئ الموكدات في مواضع منه شتى .
وكانت عنايته بتقرير هذه القضية في عقولهم , , وإقرار حقيقتها في
قلوبهم مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها ,
ثم لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعا . فالاعتقاد باليوم الآخر هو
حجر الأساس في العقيدة السماوية , كما أنه حجر الأساس في تصور

الحياة الإنسانية . وإليه مرد كل شيء في هذه الحياة , وتصحيح الموازين والقيم في كل شأن من شؤونها جميعا . . ومن ثم اقتضت هذا الجهد الطويل الثابت لتقريبها في القلوب والعقول .

والله سبحانه يقسم في مطلع هذه السورة على أن هذا الوعد بالآخرة واقع . وصيغة القسم توحى ابتداء بأن ما يقسم الله به هو من مجاهيل الغيب , وقواه المكنونة , المؤثرة في هذا الكون وفي حياة البشر . وقد اختلف السلف في حقيقة مدلولها . فقال بعضهم: هي الرياح إطلاقا . وقال بعضهم هي الملائكة إطلاقا . وقال بعضهم: إن بعضها يعني الرياح وبعضها يعني الملائكة . . مما يدل على غموض هذه الألفاظ ومدلولاتها . وهذا الغموض هو أنسب شيء للقسم بها على الأمر الغيبي المكنون في علم الله . وأنه واقع كما أن هذه المدلولات المغيبة واقعة ومؤثرة في حياة البشر .

(والمرسلات عرفا) . . عن أبي هريرة أنها الملائكة . وروي مثل هذا عن مسروق وأبي الصحن ومجاهد في إحدى الروايات , والسدي والربيع بن أنس , وأبي صالح في رواية [والمعنى حينئذ هو القسم بالملائكة المرسلة أرسالا متوالية , كأنها عرف الفرس في إرسالها وتتابعها] .

وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات . . إنها الملائكة .

وروي عن ابن مسعود . . المرسلات عرفا . قال:الريح . [والمعنى على هذا أنها المرسلة متوالية كعرف الفرس في امتدادها وتتابعها] وكذا قال في العاصفات عصفا والناشرات نشرا . وكذلك قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح في رواية .

وتوقف ابن جرير في المرسلات عرفا هل هي الملائكة أو الرياح . وقطع بأن العاصفات هي الرياح . وكذلك الناشرات التي تنشر السحاب في آفاق السماء .

وعن ابن مسعود:(الفارقات فرقا فالملقيات ذكرا , عذرا أو نذرا)يعني الملائكة . وكذا قال:ابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس والسدي والثوري بلا خلاف . فإنها تنزل بأمر الله على الرسل , تفرق بين الحق والباطل . وتلقي إلى الرسل وحيا فيه إعدار إلى الخلق وإنذار .

من الآية 15 الى الآية 15

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15)

ونحن نلمح أن التهويل بالتجهيل ملحوظ في هذه الأمور المقسم بها كالشأن في الداربات ذروا . وفي النزاعات عرفا . . وأن هذا الخلاف في شأنها دليل على إبهامها . وأن هذا الإبهام عنصر أصيل فيها في موضعها هذا . وأن الإيحاء المجمل في التلويح بها هو أظهر شيء في هذا المقام . وأنها هي بذاتها تحدث هزة شعورية بإيحاء جرسها وتتابع إيقاعها , والظلال المباشرة التي تلقيها . وهذه الانتفاضة والهزة اللتان تحدثهما في النفس هما أليق شيء بموضوع السورة واتجاهها . . وكل مقطع من مقاطع السورة بعد ذلك هو هزة , كالذي يمسك بخناق أحد فيهزه هزا , وهو يستجوبه عن ذنب , أو عن آية ظاهرة ينكرها , ثم يطلقه على الوعيد والتهديد:(ويل يومئذ للمكذبين) . .

الدرس الثاني: 8 - 15 بعض مشاهد القيامة وتهديد المكذبين

بعد ذلك تجيء الهزة العنيفة بمشاهد الكون المتقلبة في يوم الفصل الذي هو الموعد المضروب للرسول لعرض حصيلة الرسالة في البشرية جميعا:

(فإذا النجوم طمست , وإذا السماء فرجت , وإذا الجبال نسفت , وإذا
الرسول أقتت . لأي يوم أجلت ? ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ?
ويل يومئذ للمكذبين) . .

يوم تطمس النجوم فيذهب نورها , وتفرج السماء أي تشق , وتنسف
الجبال فهي هباء . . وقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكوني في سور شتى
من القرآن . وكلها توحى بانفراط عقد هذا الكون المنظور , انفراطا
مصحوبا بقرقعة ودوي وانفجارات هائلة , لا عهد للناس بها فيما يروونه من
الأحداث الصغيرة التي يستهلولونها ويرعون بها من أمثال الزلازل
والبراكين والصواعق . . وما إليها . . فهذه أشبه شيء - حين تقاس
بأهوال يوم الفصل - بلعب الأطفال التي يفرقونها في الأعياد , حين
تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب .
وإلا فالهول الذي ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من
التصور البشري على الإطلاق !

وإلى جانب هذا الهول في مشاهد الكون , تعرض السورة أمرا عظيما آخر
مؤجلا إلى هذا اليوم . . فهو موعد الرسول لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله
في الأرض طوال الأجيال . . فالرسول قد أقتت لهذا اليوم وضرب لها
الموعد هناك , لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم الذي يرجح
السموات والأرض والجبال . للفصل في جميع القضايا المتعلقة في الحياة
الأرضية , والقضاء بحكم الله فيها , وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي
إليها الأجيال والقرون . .

وفي التعبير تهويل لهذا الأمر العظيم , يوحى بصخامة حقيقته حتى
لتتجاوز مدى الإدراك:

(وإذا الرسول أقتت . لأي يوم أجلت ? ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم
الفصل ?) . .

وظاهر من أسلوب التعبير أنه يتحدث عن أمر هائل جليل . فإذا وصل هذا
الإيقاع إلى الحس بروعته وهوله , الذي يرجح هول النجوم المطموسة
والسماوات المشقوقة والجبال المنسوفة . ألقى بالإيقاع الرعب , والإنذار
المخيف:

(ويل يومئذ للمكذبين !)

وهذا الإنذار من العزيز الجبار , في مواجهة الهول السائد في الكون ,
والجلال المائل في مجلس الفصل بمحضر الرسول , وهم يقدمون الحساب
الأخير في الموعد المضروب لهم . . هذا الإنذار في هذا الأوان له طعمه
وله وزنه وله وقعه المزلزل الرهيب . .

من الآية 16 إلى آخر السورة

أَلَمْ نُهَبِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ تَفَعَّلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيَلُ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19) أَلَمْ تَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (20) فَجَعَلْنَا فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (21)

إلى قدر معلوم (22) فَعَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) أَلَمْ
تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ
مَاءً فَرَاتًا (27) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28) انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29)
انطَلِقُوا إِلَى طَلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي
بِسَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (33) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34) هَذَا يَوْمٌ لَا
يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فَيْعَنْدِرُونَ (36) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هَذَا يَوْمٌ
الْفَضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَى (38) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (39) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40)
إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي طِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَقَوَائِكَ مِمَّا يَنْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا
هَنِينًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45)
كُلُوا وَتَمَتُّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) قَبَائِحِهِمْ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

الدرس الثالث: 16 - 19 هلاك الكفار السابقين واللاحقين

ويعود بهم من هذه الجولة في أهوال يوم الفصل , إلى جولة في مصارع
الغابرين: الأولين والآخرين . .

(ألم نهلك الأولين ? ثم نتبعهم الآخرين ? كذلك نفعل بالمجرمين . ويل
يومئذ للمكذبين !). هكذا في ضربة واحدة تتكشف مصارع الأولين وهم
حشود . وفي ضربة واحدة تتكشف مصارع الآخرين وهم حشود . وعلى مد
البصر تنبذ المصارع والأشلاء . وأمامها ينطلق الوعيد ناطقا بسنة الله
في الوجود: (كذلك نفعل بالمجرمين)! فهي السنة الماضية التي لا تحيد . .
وبينما المجرمون يتوقعون مصرعا كمصارع الأولين والآخرين , يحيى
الدعاء بالهلاك , ويحيى الوعيد بالثبور: (ويل يومئذ للمكذبين) . .

الدرس الرابع: 20 - 24 لقطات من نشأة الإنسان

ومن الجولة في المصارع والأشلاء , إلى جولة في الإنشاء والإحياء , مع
التقدير والتدبير , للصغير والكبير:

(ألم نخلقكم من ماء مهين ? فجعلناه في قرار مكين ? إلى قدر معلوم ?
فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين) . .

وهي رحلة مع النشأة الجنينية طويلة عجيبة , يحملها هنا في لمسات
معدودة . ماء مهين . يودع في قرار الرحم المكين . إلى قدر معلوم وأجل
مرسوم . وأمام التقدير الواضح في تلك النشأة ومراحلها الدقيقة يحيى
التعقيب الموحى بالحكمة العليا التي تتولى كل شيء بقدره في إحكام
مبارك جميل: (فقدرنا فنعم القادرون) وأمام التقدير الذي لا يغفل منه
شيء يحيى الوعيد المعهود: (ويل يومئذ للمكذبين) . .

الدرس الخامس: 25 - 28 إشارات عن الأرض وتسخيرها للإنسان

ثم جولة في هذه الأرض , وتقدير الله فيها لحياة البشر , وإيداعها
الخصائص الميسرة لهذه الحياة:

ألم نجعل الأرض كفاتا ? أحياء وأمواتا ? وجعلنا فيها رواسي شامخات
وأسقيناكم ماء فراتا ? ويل يومئذ للمكذبين . .

ألم نجعل الأرض كفاتا تحتضن بنيتها أحياء وأمواتا . (وجعلنا فيها رواسي
شامخات) ثابتات سامقات , تتجمع على قممها السحب , وتحد عندها

مساقط الماء العذب . أف يكون هذا إلا عن قدرة وتقدير , وحكمة وتدبير ?
أف بعد هذا يكذب المكذبون ?:(وبل يومئذ للمكذبين !). .

الدرس السادس: 29 - 34 بعض أهوال النار المعذب فيها الكفار

وعندئذ - بعد عرض تلك المشاهد , وامتلاء الحس بالتأثرات التي تسكيها
في المشاعر - ينتقل السياق فجأة إلى موقف الحساب والجزاء . فنسمع
الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين , ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذي
كانوا به يكذبون , في تأنيب مرير وإيلام عسير:

انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعاب . لا
ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر .
وبل يومئذ للمكذبين ! . .

أذهبوا طلقاء بعد الارتهان والاحتباس في يوم الفصل الطويل . ولكن إلى
أين ? إنه انطلاق خير منه الارتهان . (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون). .
فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود . (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعاب). . إنه
ظل لدخان جهنم تمتد ألسنته في ثلاث شعاب . ولكنه ظل خير منه الوهج:
(لا ظليل ولا يغني من اللهب). . إنه ظل خانق حار لافح . وتسميته بالظل
ليست إلا امتدادا لتهكم , وتمنية بالظل تتكشف عن حر جهنم !

انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين ! وتعرفونها هذه التي تنطلقون إليها .
فلا حاجة إلى ذكر اسمها . (إنها ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر). .
فالشعر يتتابع في حجم البيت من الحجر . [وقد كان العرب يطلقون كلمة
القصر على كل بيت من حجر وليس من الضروري أن يكون في ضخامة ما
نعهد الآن من قصور] فإذا تتابع بدا كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ! هذا
هو الشرر فكيف بالنار التي ينطلق منها الشرر !?

وفي اللحظة التي يستغرق فيها الحس بهذا الهول , يحيء التعقيب
المعهود:(وبل يومئذ للمكذبين !).

الدرس السابع: 35 - 37 عدم كلام الكفار واعتذارهم يوم القيامة

ثم يأخذ في استكمال المشهد بعد عرض الهول المادي في صورة جهنم ,
بعرض الهول النفسي الذي يفرض الصمت والكظم . .

(هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون). .

فالهول هنا يكمن في الصمت الرهيب , والكبت الرعيب , والخشوع
المهيب , الذي لا يتخلله كلام ولا اعتذار . فقد انقضى وقت الجدل ومضى
وقت الاعتذار:(وبل يومئذ للمكذبين)! . . وفي مشهد آخرى يذكر
حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم . . واليوم طويل يكون فيه هذا
ويكون فيه ذاك - على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما - ولكنه هنا يثبت
هذه اللفظة الصامته الرهبة , لمناسبة في الموقف وظل في السياق .

الدرس الثامن: 38 - 40 عجز وضعف الكفار يوم القيامة

(هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . وبل
يومئذ للمكذبين !). .

هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار . وقد جمعناكم والأولين أجمعين . فإن كان لكم تدبير فدبروه , وإن كان لكم قدرة على شيء فافعلوه ! ولا تدبير ولا قدرة . إنما هو الصمت العظيم , على التائب الأليم . (ويل يومئذ للمكذبين !)

الدرس التاسع: 41 - 45 لقطات من نعيم المؤمنين في الجنة

فإذا انتهى مشهد التائب للمجرمين , اتجه الخطاب بالتكريم للمتقين:

(إن المتقين في ظلال وعيون , وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين !)

إن المتقين في ظلال . . ظلال حقيقية في هذه المرة ! لا ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ! وفي عيون من ماء لا في دخان خانق يبعث الظماً الحرور: (وفواكه مما يشتهون) . وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسي التكريم العلوي على مرأى ومسمع من الجموع: (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين) وبإلطف هذا التكريم من العلي العظيم (ويل يومئذ للمكذبين !)

الدرس العاشر: 46 - 47 تهديد الكفار في الدنيا

وهنا تعرض في خطفة سريعة رقعة الحياة الدنيا التي طويت في السياق . فإذا نحن في الأرض مرة أخرى . وإذا التيكيت والترذيل يوجهان للمجرمين !

(كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين !)

وهكذا تختلط الدنيا بالآخرة في فقرتين متواليتين , وفي مشهدين معروضين كأنهما حاضران في أوان , وإن كانت تفرق بينهما أزمان وأزمان . فبينما كان الخطاب موجهاً للمتقين في الآخرة , إذا هو موجه للمجرمين في الدنيا . وكأنما ليقال لهم: اشهدوا الفارق بين الموقفين . . وكلوا وتمتعوا قليلاً في هذه الدار , لتحرموا وتعذبوا طويلاً في تلك الدار . (ويل يومئذ للمكذبين !)

الدرس الحادي عشر: 48 - 50 عناد الكفار فلا ينفع معهم حديث

ثم يتحدث معجياً من أمر القوم وهم يدعون إلى الهدى فلا يستجيبون:

(وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين !)

مع أنهم يبصرون هذا التبصير , وينذرون هذا النذير . .

(فبأي حديث بعده يؤمنون ?)

والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي , وبهذه الهزات التي تزلزل الجبال , لا يؤمن بحديث بعده أبداً . إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس , والويل المدخر لهذا الشقي المتعوس !

إن السورة بذاتها , بنائها التعبيري , وإيقاعها الموسيقي , ومشاهدها العنيفة , ولدعها الحاد . . إنها بذاتها حملة لا يثبت لها قلب , ولا يتماسك لها كيان .

فسبحان الذي نزل القرآن , وأودعه هذا السلطان !

انتهى الجزء التاسع والعشرون ويليه الجزء الثلاثون

مبدؤا بسورة النبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة النبأ الى سورة الناس

نهاية الجزء التاسع والعشرون